ميمي

اقصوصة مصرية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

جلس « طلبة » فى القطار العائد به من مصيفه فى الاسكندرية يفكر فى « وردة » ، فما استطاعت الاسكندرية بمن حفلت بهن من الفتيات اللائى جئن من كل مدينة وقرية ليعرضن جمالهن وفتنتهن على شواطئ البحر أن تنسيه سحرها ودلها أو تصرفه عنها وتحوّل قلبه إلى سواها . وإن الاسكندرية لمفسدة أى مفسدة — كذلك جعل يقول لنفسه وهو يهتز فى مقعده من فرط السرعة التى يعدو بها القطار — ماذا يظن هؤلاء الآباء الذين يتركون بناتهم يتجردن على الشاطئ ، ويصبحن لاهن كاسيات ولاهن عاريات ؟

ولم يكن طلبة من الطراز القديم أو المحافظ ، فقد كان ابن عصره الذى لم يشهد سواه ، ولكنه كان فتى أكسبته حياته وعمله اتزاناً قلما يتاح فى مثل هذه السن ؛ فقد كان صيدلياً ، والصيدلى يرى كل صنوف الناس ، ولا يسعه وهو يستقبل الزبائن ويرحب بهم ويتلقى «أوامرهم» ويصغى إلى حديثهم وثرثرتهم فى أحيان كثيرة إلا أن ينظر ويفكر ويقارن ويقابل ، وإلا أن يقف على كثير مما يخفى على الشبان أمثاله فى أعمال أخرى ، وإلا أن يلم بحالات قلما تمر نظائرها بأنداده . وقد أفاد من عمله فى الصيدلة صبراً وحلماً وتسامحاً وحكمة ومقداراً من « الحصانة » تمنع أن يغتر المرء بالظواهر . وتلك بعض ثمار المعرفة التى اكتسبها فى ذلك المعرض الذى يسميه الناس : « الصيدلية » ولا يخطر لهم أنه يمكن أن يُرى فيها غير العقاقير

وخطر لطلبة والقطار ينهب به الأرض أن من الحماقة أن يتوهم الآباء أن عرض بناتهن على الشواطئ يعجل بتزويجهن . ورجه القطار وهو يفكر فى ذلك فكأنما رج ما فى رأسه أيضاً فعاد يسأل نفسه : « ولكن هل هم يعرضون بناتهم ليزوجوهن ؟ أليس الأصح أن يقول إن تيار الزمن جرفهم ، وإنهم لم يستطيعوا مقاومته ، فهم لا يعنون شيئاً ولا يريدون أمراً ، وإنما ينزلون على حكم التيار ؟ على أن المهم على كل حال أن هـذا العرض يزيغ العين ، والرجل يستطيع بعد أن يرى كل هذا الجمال المتنوع المحشود أن يروض نفسه على الصبر على طعام واحد . وطبيعى أن يقنع بالفجلة وكسرة الخبز اليابسة من لم يجلس إلى الموائد المثقلة بألوان الآكال الشهية ، ولكنه إذا جرب هـذه الطعوم المغرية فإنه لا يكون آدمياً إذا ظل يعد الفجلة نعمة من الله ! »

وسأل نفسه مرة أخرى : « ولكن هل معنى هذا أن الأولى أن تُرد البنات عن حمامات البحر وما إليها ؟ » وهز رأسه وقال لنفسه : « مستحيل . ثم إن الحياة لا تطيب بذلك حتى لو تيسر ... كان يمكن أن تطيب لو أننا ظللنا لا نرى على الشاطئ كل هذه المفاتن ، ولكننا أكلنا من شجرة المعرفة فلا

قناعة لنا بشيء بعد الآن ، ولا سبيل إلى الصبر على الحرمان ... »

واعتدل فى مقعده وسأل نفسه هذا السؤال « إذا كان الزواج هو الغاية ... لا تقل الغاية ... فانه على كل حال ليس إلا واسطة . ولكن نقول إذا كان هذا الزواج هو النظام المقرر فأيهما خير للرجل المدرك المفكر ... أن يتزوج واحدة من أولئك اللواتى لا يخرجن إلى البحر فى ثياب الاستحمام ولا يعرفن السينما ، ولا يبرزن للرجال ، ولا يعرفن من الحياة إلا الأكل والكسوة والجلوس على الحشايا ، ولا تخشى عليهن الفتنة لأنهن لا يتعرضن لها ، أم أن يتزوج واحدة من هؤلاء المرحات ، الصابحات الوجوه ، البضات الأجسام ، الرشيقات القوام ، اللواتى يحسن الحديث والسمر ، ويعرفن كيف يتمتعن ويتمتعن ، ويجعلن الحياة كلها فرحة دائمة ، ونعيما مقيما ، ومتعة مستمرة ، لكثرة ما فيها من التنوع ؟

وهز رأسه مرة أخرى وقال : « مشكل والله ! وعقدة لا أعرف لها حلا ... فتلك الجاهلة لا تكون إلا مملة ، وإن كان المرء يسعه أن يطمئن وأن يسكن ، وتلك المتعلمة المدنية البرزة أحلى وأمتع ، فى أول الأمر على الأقل ، ولكن السكرة تذهب ، وتزول النشوة ، وتجىء الفكرة ، ويحتاج المرء إلى السكون والرضى والاطمئنان ... الراحة على العموم ... وأين الراحة مع الخفة والتقلقل الدائم والشك الذي لا سبيل إلا إليه ولا حيلة فيه ؟ »

وطال تفكيره فى هذا وما هو منه بسبيل ، ولم يجد فى هذا الراحة ، ولم يستطع أن يهتدى إلى رأى فيما عرض على نفسه ، فانتقل إلى « وردة » وشرع يتصورها على هواه . وكان يدرك وهو يفعل ذلك انه يفيض عليها من خياله ، ولكنه كان يقول لنفسه ان الخيال أمتع من الحقيقة ، وإن الجمال الذى لا يحرك الخيال لا قيمة له ، وإن الجمال الحقيقى هو الذى يجدد نفسه فى خاطرك ، ويعرض عليك من صوره وفتنه ألوانا ومعانى لا ينضب لها معين . وهذه مزية وردة ، وإن كانت هذه أيضا آفتها ، فانها زئبقية ... لا تستقر حقيقتها — إذا كانت لها حقيقة — ولا تستطيع أن تتناولها وتقول هذه هى فى يدى ... كلا ... مستحيل ...

وارتفعت لعينه وهو يفكر فى « زئبقية » وردة صورة « ميمى » الوديعة ... ميمى البتيمة التى لم يبق لها من الأهل سواه ، فهى فى بيته — مذجاءت بها أمه — كالأخت ، أو إذا شئت ، كالخادمة ، تقضى له حاجاته ، وتعد له أشياءه ، وتتعهد البيت ، وتدبر أموره ، فى سكون ومع الابتسام الدائم ، ومن غير تأفف أو ضجر ، ولا تطلب إلا أن يكون راضيا ناعم البال قرير العين ... أتراها تحبه ؟ ؟ إن هناك ما يشير إلى ذلك ويشى به ، ولكنها لا تقول شيئا ، ولا تجترئ على أكثر من ابتسامة السرور حين يسرها ، ويخيل إليه أحيانا أنها كانت تبكى أو أن الدمع يتحير فى عينيها ، ولكنه لا يدرى ... لا يدرى ... ثم إنه لا يريد أن تحبه ، كلا ... فانه يحب غيرها ...

وجرى بباله البيت المشهور وهو يتناول حقيبته وينزل من القطار فى محطة القاهرة :

« جننا بليلى ، وهي جنت بغيرنا
وأخرى بنا مجنونة لا نريدها »

فقال بصوت مسموع : « أعوذ بالله ! ما هذه السخافة ؟ قد تكون ميمى مجنونة بى ، وإنى لمجنون بوردة ، ولكن وردة على التحقيق لا تحب أحدا غيرى ... نعم لا يبدو أنها تحبنى كما أشتهى وأتمنى . ولكن من فضل الله أنها لا تحب سواى ... هذا شىء على كل حال ... يمكن أن أقتنع به الآن ...

ومع الارتياح ... ولكن من يدرى ... ؟ »

وساورته الشكوك وهو يشترى فى طريقه طاقة من الأزاهير البيضاء التى يعرف أن وردة تحبها ، وظلت تساوره وهو يدخل شقته ويلقى بالحقيبة ، ويتلقى تحية ميمى بفتور لا يعنيه . وقد سخط على نفسه وأوسعها تقريعاً وذماً ، وقال لها : « هذه وردة يشرق وجهها لك ، وتكاد تفتح ذراعيها ، وتبدو كأنها تريد أن تضمك إلى صدرها الناهد ... الحق أن صدرها جميل ... وأنت تقابلها بهذا الفتور ؟ ... إن هذه خسة : ماذا جنت الفتاة حتى تصدمها هذه الصدمة ؟ وتدفع فى صدرها بجُمع يدك ؟ آه صدرها ! ... الحق أنه جميل ... قدها كله جميل ، فيها لين ، تنساب كالماء الرقراق ... ثم إنها وديعة ، راضية ، حلوة الطبع ، لماعة العين دائماً ، أوه ميمى .. ميمى ؟ إنه يجب أن أفكر فى وردة ... »

وكانت ميمى فى هذه اللحظة تضع الورود فى الزهرية ، فزعق طلبة : « ماذا تصنعين ؟ »

قالت باستغراب : « أرتب الورد ، أليس ... »

ولم تتمها ، فقد انتزع منها الأزاهير وهو مقطب ولفها فى ورقها كما كانت ، وتمتم وهو يفعل ذلك : « ترتب الورد ! أتراها تظننى جئت به لأزين به بيتى ؟ » وقال بصوت عال : « دعيه هكذا ... إنه لوردة »

فأحست المسكينة بمثل شكة الخنجر ... يعود من الاسكندرية بعد خمسة عشر يوماً قضاها هناك ثانياً عنها ؛ ولا يذكرها بزهرة واحدة ، ومعه هذا « الحوض » كله ، يحتفظ به لوردة : ولا يخطر له أن من الرحمة الواجبة ألا يخزها على هذا النحو ! ماذا كان عليه لو اتقى أن يجىء به إلى البيت ؟ ولكن .. »

ولم تسترسل فى هذه الخواطر المؤلمة ، فقد كان عليها أن تهيئ له ثياباً أخرى يلبسها ليزور وردة ! وإن ميمى لتعلم أن وردة مشغولة عنه بغيره ، وأنها لا تفكر فيه ، ولا تبالى أجاءها بهذه الأزهار الجميلة أم نسيها ولم يخطرها بباله . ولكن ميمى لا تستطيع أن تقول له هذا وإلا ظن بها الظنون

وأحست ميمى وهى تنفض لطلبة ثيابه التى يجب أن يرتديها بثورة نقمة على وردة ، وشعرت كأن وردة تخون طلبة لأنها مشغوفة بسواه . وصحيح أن وردة لا زوجته ولا خطيبته ، ولكن هذا لم يمنع ميمى أن تسخط على وردة وأن تشعر لها بكراهية شديدة يزيدها علما أنها غير محقة فيها

وخرج طلبة ، ومعه طاقة الزهر الأبيض ، وبقيت ميمى وحدها ، لا أنيس لها إلا خواطرها . نعم هناك أمه ، وأخته ، وخادمة ، ولكن ما أنسها بهؤلاء ؟ وهى مضطرة أن تتكلف أمامهن الابتسام وأن تتظاهر بغير ما تبطن ، وهذا بلاء آخر ...

ولم يطل غياب طلبة ، فقد عاد ، ومعه طاقة الزهر الأبيض التى خرج بها ، ففتحت له ميمى الباب وارتدت مذهولة .. أذهلها تجهمه ، وأذهلتها طاقة الزهر التى تتدلى بها يده ؛ فارتدت ولم تقل شيئاً ، وتركته يدخل وهو مطرق لا ينظر إليها ولا إلى شىء ، ويرمى بطاقة الزهر على المائدة ، ويذهب إلى غرفته ، ويرد بابه حتى لا يدخل عليه أو يزعجه أحد

وبعد قليل صفق ، فذهبت إليه أخته فردها وقال لها : « ابعثى إلىّ بميمى » . ولم يكن هذا مستغرباً فقد كانت ميمى هى الموكلة به فى الحقيقة ، وكانت أمه يسرها أن ترى ميمى تقوم له بحاجاته وتتكفل بأموره ، وكان رجاؤها أن يفطن ابنها إلى قيمة ميمى فيتخذها زوجة

وذهبت إليه ميمى فقال لها : « اجلسى ، واصدقينى »

قالت : وهى تجر كرسياً : « نعم »

قال : « وردة ... إنك تعرفينها كما أعرفها ، فلا

تخفى عنى شيئاً ... ما هى الحكاية ! »

قالت : « أى حكاية ؟ »

قال : « إن المرأة تعرف عن المرأة أكثر مما يستطيع أن يعرف الرجل . ثم إن النساء يتحدثن فيما بينهن بما لا يتيسر العلم به للرجال ، فأخبرينى ما هى حكاية وردة ؟ »

فكررت قولها : « أى حكاية ؟ »

قال : « ألا تريدين أن تخبرينى ؟ إذن سأعرف كل شىء وحدى » ونهض ليخرج ...

ولم تستطع ميمى أن تكتم ما بنفسها ، فحدثت أمه بما سألها عنه من خبر وردة ، وتركتها تتصرف كما تشاء . على أن الأمر لم يحتج إلى تصرف من الأم أو سواها ، فقد أراد طلبة أن يقف على جلية الخبر وأن يعرف من هذا الشاب الذى رآه خارجاً معها من بيتها يوم عاد — أى طلبة — من الاسكندرية ، وذهب إليها ليسلم عليها ويقدم لها الورود البيضاء التى تحبها وتؤثر جمالها على سواها من ضروب الزهر . وكان هو يهم بالنزول من الترام فى محطته أمام بيتها ، فلما رآها خارجة ومعها هذا الفتى الغريب الذى لم يره قط من قبل بقى على سلم الترام إلى المحطة التالية ، ثم عاد إلى بيته . وما خير أن يذهب إليها وهى خارجة ؟ ومع فتى ؟

وكان « طلبة » ممن يؤمنون بأن الخط المستقيم أقرب المسافات بين نقطتين ، فذهب إلى أبيها وسأله عن هذا الفتى من عسى أن يكون . وكان بين أسرة طلبة وأسرة وردة من الصلات الوثيقة القديمة ما يسمح له بمثل هذا الاستفسار الذى كان خليقاً أن يعد — لولا ذلك — فضولاً غير مقبول . وكانت وردة وحيدة أبيها ، وقد ماتت أمها ، فرق لبنته جداً ودلها تدليلاً شديداً . فقال الأب : « هذا حسنى ... خطيبها ... وعلى فكرة ... أظن أنه من الأوفق ... تعرف ما أعنى ... ولا مؤاخذة »

فهز طلبة رأسه وقال : « نعم أعرف ... يحسن بى أن أكف عن زيارتكم حتى لا أثير وساوس الخطيب ... ولكنى ياعمى من عسى أن يكون هذا الخطيب ؟ إنه طارئ ولا شك ، فانى أعرف كل معارفكم ، ولا أذكر أنى رأيته أو سمعت به وما غبت عنكم إلا خمسة عشر يوماً . أفى خمسة عشر يوماً يعرف وردة ، ويخطبها ، وينتهى الأمر ؟ »

قال : « ولم لا ؟ ؟ يوم واحد يكفى ما دمنا قد قد سألنا ووثقنا أنه شاب طيب حسن السيرة »

قال : « وهل سألت ياعمى ووثقت ؟ »

فقال الرجل بلهجة المتأفف : « ما هـذه الأسئلة ؟ »

فقال طلبة وهو ينهض : « أنا أعرف أنك لا تستطيع أن تكذب ... وأستطيع أن أعرف أنك لم تسأل ولم تستوثق ، وإنما نابت عنك وردة فى هذا كله ... مبارك على كل حال ... وأستودعكم الله »

* * *

ومضت الأيام وطلبة يعالج نفسه ، ويروضها على الانصراف عن وردة ، واستطاع شيئاً فشيئاً أن يقنع نفسه بأن الخيرة فى الواقع ، وأن الزواج لا يكون مؤدياً إلى السعادة إذا كانت الفتاة مدللة كوردة كل هذا التدليل ، حتى لتخطب لنفسها من تشاء ، ولا يسع أباها إلا الموافقة . وعاد — شيئاً فشيئاً أيضاً — إلى ما كان يفكر فيه وهو عائد من الاسكندرية ، ويسأل نفسه عنه : « أى الفتاتين خير ؟ واحدة نشأت على الطاعة والعفة أم أخرى مدللة تعرف حمامات البحر والخروج مع الرجال ؟ » وزاد السؤال تحديداً فجعله هكذا : « أيهما خير لمثلى : فتاة وديعة كيمى تحبنى وتطيعنى ولا تعرف سواى ، أو تفكر فى غير واجباتها لى وإن كانت

تنقصها مظاهر الطراز الحديث ؟ أم أخرى كوردة تخطب لنفسها من تشاء ولايسع أباها إلا الموافقة ؟ »

وانتهى من هذا إلى التفكير الجدى الرزين فى ميمى ، ولم يخالجه شك فى أن ميمى ستفرح حين تعلم أن رأيه استقر على الزواج منها . وقد خاطب أمه فى الأمر ففرحت ، وحدث أخته ففرحت ، وكاد يحدث الخادمة ، وفى يقينه أنها لاشك ستفرح فقد ربيت — أى الخادمة — فى بيته

كل امرئ فرح إلا ميمي ، حين كلمها أمه . وفى قولنا إنها لم تفرح شئ من التساهل فى التعبير ، ذلك أنها فرحت لأن هذا هو الذى كانت تطمع فيه وتتطلع إليه ، ولكنها كانت تعلم أن طلبة يحب وردة ، وآلمها أن يشقى طلبة ، وأن تغدر به وتخونه وردة ، وسرها أنه لم يفز بها ، وحز فى نفسها أن طلبة إنما انثنى إليها ورغب فيها لأن أمله فى ورده خاب . وكان هذا أوجع ماعانته من الاحساسات ، وتنازعتها الرغبة فى إرضاء حبها بالقبول والرغبة فى إرضاء كبريائها بالرفض ؛ وكانت أحياناً تميل إلى الرفض وهى تشتهى ويكاد قلبها يتمزق من فرط الحب ، ثم تميل إلى القبول ، ولكن الألم يمزق أعصابها ويتلفها ، فتبكى

وترى الأم والأخت هذا منها فتستغربان وتنكران هذا البكاء ، ويخطر لها تارة ان هذا بكاء السرور ، وتارة أخرى أن ميمى لا تريد طلبة زوجا لها ، ولكنها لا تستطيع أن ترفض لأنها يتيمة لا أهل لها ولا بيت إلا هذا ...

وكان هذا بعض ماخطر لميمى وقطع قلبها ، وزادها حيرة ، فهى إذا قبلت الزواج لا يسعها أن تنسى أن قلب طلبة مع وردة ، وإذا رفضت ، فقد قضت على حبها ووجب عليها في هذه الحالة أن تترك البيت ، ولكن إلى أين فى هذه الدنيا الطويلة العريضة الزاخرة بملايين الخلق ، والتى تضيق مع ذلك بفتاة واحدة ؟؟

وطال التردد ، ومضت الأيام ، والكل حائر ، حتى طلبة بدأ يستغرب ، وظن أن ميمى لا تريده ، وأنه كان مخطئاً فيما توهمه دليلا على ميلها إليه وتعلقها به ؛ وكان من فضل هذا أن صغا إليها بقلبه ، شيئاً فشيئاً أيضاً ... حتى كانت ليلة فناداها ، فلما دخلت عليه صارحها بما نابت عنه أمه قبل ذلك فى الكلام فيه

فقالت له : « لا ... إنك تحب وردة ، فأنا لست لك »

قال : « أهو هذا ؟ » وسرته هذه الغيرة وأيقن من حب الفتاة وقال : « اسمعى يا ميمى : لقد كنت أتوهم أنى أحب وردة ، ولكن المرء قلما يعرف نفسه . ولو أنى كنت أحبها بالمعنى الصحيح لما استطعت أن أسلوها بهذه السرعة . وقد كنت أعمى ... الدرة تحت عينى وأنا لا أراها ... »

فقاطعته : « لأنك لم تكن ترى إلا وردة »

قال : « نعم » فلما خلت منها حياتى استطعت أن أنتفع بعينى . ومن واجبى أن أشكر الله ، فلو لم أتعلق بوردة لما استطعت أن أفطن إلى الدرة التى كنت ذاهلا عنها ... وإذا كنت تحبيننى كما أعتقد وأرجو ، فان من واجبك أن تحمدى أنى افتتنت بوردة أياماً ، فكانت هذه الفتنة سبيل المعرفة ووسيلة الهداية ... أليس كذلك ياميمى ؟ »

وأراد قلب ميمى أن تقتنع ، فاقتنعت ، ولم تندم قط بعد ذلك على أنها أطاعت قلبها ولم تطع كبرياءها . وقد كان من الممكن أن يكون الأمر على نقيض ذلك ، ولكن طلبة كان صادقاً حين قال إن فتنته كانت سبيل المعرفة ، وإنه عرف نفسه بعد أن ضل قليلا .